ما يختصون به ـ حتى في غير العبادات ـ؛ وذلك لأننا إذا تشبهنا بهـم في غير العبادات، وفعلنا ما هو مـن خصائصهم؛ فـإن هـذا يجرنا إلى أن نتشبه بهم في العبادات؛ ولهذا قال العلماء: إن التشبه بهم في الظاهر يجـر إلى التشبه بهم في الباطن؛ فيهلك الإنسان كا هلكوا. 8- وفي قوله: « غير المغضوب عليهم ولا الضالين » دليل على أنه يجب علينا معاداة هؤلاء، وبغضهم، وعدم مناصرتهم، سواء ناصرنا بعضهم على بعض أو ناصرناهم على أحد من المسلمين، فكل ذلك حرام، لكن الثاني أشد وأعظم، أما محبتنا أن ينتصر بعضهم على بعض فإن هذا لا بأس به إذا كان هذا المنتصر أهون على المسلمين وعلى الإسلام من الآخر؛ ولهذا قال الله ـ تعالى ـ: «الما غلبت الروم (4) في أدنى الأرض وهم من بعد عليهم سيغلبون و في بضع سنين لله و
الأمر من قبل ومن بعد ويوميذ يفرح المؤمنون و ينصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم﴾ [الروم : :1 - 5]؛ يعني: بنصر الله الروم على الفرس، ومن المعلوم أنهم لم يفرحوا بذلك إلا لأنهم يحبونه؛ لأن الإنسان لا يفرح بشيء إلا وهو محبوب إليه، فلا حرج علينا إذا أحببنا أن ينتصر بعض الكفار على بعض؛ لكونهم أهون من الآخرين، وأقل خطرا على الإسلام والمسلمين، لكن الجميع يجب علينا أن نتبرأ منهم، وأن نعاديهم، وألا يكون بيننا وبينهم ولاء، قال الله ـ تعالى ـ: « والذين
م

سـورة الفاتحة

اه

ج
كفروا بعضهم أولياء بعض إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبيره [الأنفال: 73]، وقال - تعالى -: «يأيها الذين ءامنوا لا تتخذوا اليهود والنصرى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدي القوم الظلمين ، فترى الذين في قلوبهم مرض يسرعون فيهم يقولون تخشى أن تُصيبنا دايرة فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده، فيصبحوا على ما أسروا في أنفسهم تدمين ﴾ [المائدة: ٥١ - ٥٢]. ـ وفي قوله: * غير المغضوب عليهم ولا الضالين » دليل على أن كلتا الطريقتين سيئة، يجب البعد عنها، والتنزه منها، لا الاستكبار على الحق مع العلم به، ولا الجهل بالحق؛ ويتفرع على هذه الفائدة: أنه ينبغي للإنسان أن يتعلم؛ حتى لا يكون مـن الـضالين، وأن يتعبـد حتى لا يكون مـن المغضوب

عليهم. وطلب العلم قد يكون فرضا على الأعيان، وقد يكون فرضا على الكفاية، وقد يكون مستحبا؛ فهو فرض على الأعيان في كل ما يتوقف عليه العلم بالعبادة التي يتعبد بها الإنسان؛ فالطهور والصلاة يجب على الإنسان أن يتعلم منها ما يحصل به الواجب، وكذلك الأمر في الصيام، وكذلك في الحج، وكذلك في الزكاة، وفرض على الكفاية فيها لا يتعين على الإنسان العمل به، فتعلمه فرض كفاية إذا قام به من يكفي؛ لأنه في هذه الحالة يسقط عن الباقين. وأما القسم الثالث وهو السنة، فهو ما يكون فرض كفاية، إذا قام

به من يكفي فإنه يكون سنة في حق الباقين. وإنني ـ بهذه المناسبة ـ أحث إخواني ـ ولا سيما الشباب منهم ـ على أن يحرصوا على العلم الشرعي؛ لأن الناس ـ الآن ـ في حاجة ماسة بل في ضرورة إليه؛ لكثرة الجهل - الجهل البسيط والجهل المركب ـ؛ لأن كثيرا من الناس لا علم عندهم، وكثير من الناس عندهم علم، ولكن ليس عندهم فهم، وإني أضرب مثلا لذلك بها سمعته من أن بعض الناس قال: الأفضل أن يتوضأ الإنسان إذا كان عنده ماءان في أيام الشتاء ـ ماء دافئ وماء بارد ـ بالماء البارد، وكلما كان أبرد كان أفضل، يقول ذلك؛ لأن النبي ﷺ أخبر بأن مما يرفع الله به الدرجات ويكفر به الخطايا؛ إسباغ الوضوء على المكاره، قال: فينبغي أن يختار الأبرد؛ لأنه أكره إلى الإنسان، وهذا جهل عظيم، وفهم قاصر، والرسول عليه الصلاة والسلام لم يقل: الوضوء بالماء البارد، أو إسباغ الوضوء بالماء البارد، لكن قال: إسباغ الوضوء على المكاره؛ يعني: أن الإنسان لا يمنعه كراهة استعال الماء عن إسباغ الوضوء، بل يسبغ الوضوء مع كراهة استعمال الماء؛ لشدة برودته، ولا يريد الرسول عليه الصلاة والسلام من أمته أن يعجز الإنسان عن الماء الدافئ المناسب لطبيعته إلى الماء البارد الذي قد يفوته الإسباغ، والمعروف من قاعدة الشريعة العظيمة أن كل ما كان أيسر

(1) أخرجه مسلم: كتاب الطهارة، باب فضل إسباغ الوضوء على المكاره، رقم (٢٥١).

فهو أقرب؛ قال الله ـ تعالى ـ: « يريد الله بكم اليسر ﴾ [البقرة: 185]، وقال رسول الله ﷺ: «إن الدين يسر، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه...»(١)

وكان رسول الله ﷺ يبعث أصحابه ويقول: «يسّروا ولا تعسروا، وبشروا ولا تنفروا»، وكان - عليه الصلاة والسلام - لا يخير بين شيئين إلا اختار أيسرها ما لم يكن إثما").

ولا شك أن الأيسر للإنسان إذا كان عنده ماء دافئ وماء بارد أن يتوضأ بالماء الساخن، ووضوءه بالماء الساخن ليس إثما؛ إذن فالرسول - عليه الصلاة والسلام - لو خير بين هذا وهذا لاختار الدافئ؛ وعلى هذا يكون القول بأن يختار الماء البارد قولا بلا علم، وإن شئت قل قولا بلا فهم؛ لذا فإنني أحث إخواني - ولا سيما الشباب - على العلم، والفهم، والتأني في الأمور، وعدم التسرع في الحكم على الشيء؛ حتى يتقن ذلك إتقانا بينا؛ لأن المقام خطير، والكلمة الخطأ قد يصعب انتشال الناس منها فيما بعد.

(١) رواه البخاري: كتاب الإيمان، باب الدين يسر، رقم (٣٩). (٢) رواه البخاري: كتاب المغازي، باب بعث أبي موسى ومعاذ إلى اليمن، رقم (٤٣٤١)، ومسلم: كتاب الجهاد والسير، باب في الأمر بالتيسير وترك التنفير، رقم (١٧٣٣). (٣) انظر البخاري: كتاب المناقب، باب صفة النبي ﷺ رقم (3560)؛ ومسلم: كتاب الفضائل، باب مباعدته ﷺ للآثام واختياره من المباح أسهله، رقم (٢٣٢٧)

١٠- وفي قوله - تعالى -: « غير المغضوب عليهم ولا الضالين » دليل على أن من علم الحق ولم يتبعه أسوأ حالا ممن جهله؛ لأن الأول جعلت عقوبته الغضب؛ حيث قال:* غير المغضوب عليهم * ويتفرع على هذا التحذير عدم عمل العالم با علم؛ لأن العالم إذا علم قامت عليه الحجة، وليس المراد هنا بالعالم من كان علمه واسعا، بل المراد كل من علم بمسألة من مسائل الدين؛ فهو عالم بها حتى وإن كان وصفه عاميا، فكل من علم حكتها من أحكام الدين فإن عليه أن يطبقه، وإن لم يفعل كان مستحقا لغضب الله - عز وجل - غضبا بحسب ما خالف به أمر الله، والله - تعالى - قال : « غير المغضوب عليهم ولم يقل: «غير من غضبت عليهم» ؛ كما قال في القسم الأول:(صراط الذين أنعمت عليهم ، وهذا دليل على أن من غضب الله عليه؛ فإنه يغضب عليه كل ولي الله؛ ويتفرع على ذلك أنه يجب علينا نحن المسلمين أن نغضب على كل من غضب الله عليه، وأن نعلم بأن كل من كان حربا الله فهو حرب لنا، وأن كل من كان عدوا الله فهو عدو لنا؛ كما قال تعالى: من كان عدوا لله ومليكته،

ورسله، وجبريل وميكئل فإن الله عدوّ للكفرين ﴾ [البقرة: ٩٨].

١١ـ وفي قولـه ـ تعالى ـ: « غير المغضوب عليهم ؟ دليـل عـلى
مهانة هؤلاء، وخشتهم، وغلوهم؛ ولهذا ذكروا بوصف اسم المفعول،

ولم يعطوا حق اسم الفاعل؛ لأنهم مغضوب عليهم مهانون مطرودون
مبغضون.

ج
١٢ـ وفي قوله: « غير المغضوب عليهم » دليل ـ أيضا ـ على إثبات الغضب الله - عز وجل -، وهو من صفاته الثابتة له في كتابه، وأجمع عليها السلف؛ قال الله ـ تعالى ـ: (قل هل أنبئكم بشـر من ذالك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطفوت﴾ [المائدة: 60]، وقال - تعالى -: «ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذابا عظيمًا﴾ [النساء: 93]، والغضب صفة من صفات الله ـ عز وجل ـ تدل على كمال سلطانه وقدرته، وتستلزم عقوبة المغضوب عليهـم؛ قال الله ـ تعالى -: ﴿فلما ءاسفونا أنتقمنا منهم ﴾ [الزخرف: 55]، ولا يصح تفسير الغضب بالانتقام ولا بإرادة الانتقام؛ لأن الغضب شيء ينشأ عنه إرادة الانتقام ثم الانتقام؛ ولهذا قال ـ عز وجل -: «فلما اسفونا» ؛ أي: أغضبونا، ثم قال: «أنتقمنا منهم فأغرقنهم أجمعين ﴾ [الزخرف: 55]. ١٣ـ وفي قولـه ـ تعـالى -: ﴿ ولا الضالين * إشارة إلى أن الضلال صفة ممقوتة؛ لأن المؤمن يسأل الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن يعـصـمـه مـن طريق الضالين؛ فيتفرع على ذلك: أن العلم صفة كال ـ وهو كذلك ؛ ولهذا قال الله ـ تعـالى -: (أمن هوفنيث ءاثاء اليل ساجدا وقاهما تحذر

-

الآخرة ويرجوا رحمة ربي قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولوا الألباب﴾ [الزمر: 9). ولكن ما هو العلم الذي يستحق المرء الثناء عليه؟ إن العلم الذي يستحق المرء الثناء عليه هو العلم بشريعة الله؛ العلم بأسماء الله وصفاته، العلم بأفعال الله؛ لأن ذلك هو الذي يحقق العبادة التي خلق من أجلها الإنس والجن؛ كما قال الله ـ تعالى ـ: (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾ [الذاريات: 56]، وأما العلم بالصناعة، والأمور السفلية الأرضية فهذا لا يحمد ولا يذم على الإطلاق، بل إن أدى إلى خير ونفع كان محمودا، وإن أدى إلى شر وضرر كان مذموما، وإن لم يؤد إلى هذا ولا إلى هذا، كان لا هذا ولا هذا، لا يحمد ولا يذم إلا أن يفوت به ما هو أنفع وأصلح؛ فإنه قد يذم على ذلك. ١٤ـ وفي قوله: (ولا الضالين » ـ دون أن يعلق الغضب على ضلالهم ـ دليل على أن الضال لا يستحق العقوبة؛ أي: أن الإنسان إذا كان جاهلا بالشيء لا يستحق العقوبة عليه ـ وهو كذلك ؛ لقوله ـ تعالى : (ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، لكن إن كان مفرطا بترك التعلم فقد يؤاخذ على تفريطه لا على جهله؛ لأن الإنسان يجب عليه أن يتعلم من أحكام دينه ما يحتاج إليه، وقد اختلف العلماء ـ رحمهم الله ـ في الرجل يترك المأمور جهلا به هل يؤمر بقضائه أم لا يؤمر بقضائه؟

فمنهم من قال: إنه يؤمر بالقضاء؛ لأن الواجب لا يسقط بالجهل، ومنهم من قال: إنه لا يؤمر بالقضاء؛ لأن النبي ﷺ لم يأمر المسيء في صلاته بقضاء ما كان قد فعله من قبل؛ وكان هذا الرجل يصلي ولا يطمئن، فجاء ذات يوم فصلى والنبي ﷺ ينظر إليه، فلا سلم على النبي ﷺ قال له: «ارجع فصل؛ فإنك لم تُصل»، فرجع فصلى كما صلى، ثم جاء فسلم على النبي ﷺ فقال: «ارجع فصل؛ فإنك لم تصل» (ثلاثا)، فقال: والذي بعثك بالحق، ما أحسن غيره، فعلمني، فقال: «إذا قمت إلى الصلاة فكبر، ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن، ثم اركع حتى تطمئن راكعا، ثم ارفع حتى تعتدل قائما، ثم اسجد حتى تطمئن ساجدا، ثم ارفع حتى تطمئن جالسا، وافعل ذلك في صلاتك كلها»)، فلم يأمره النبي ﷺ بإعادة ما سبق من الصلاة مع أنه كان لا يصلي على وجه مجز، وكذلك المرأة المستحاضة ـ التي كانت تستحاض فلا تصلي - لم يأمرها النبي ﷺ بإعادة الصلاة"، قالوا: فهذا دليل على أن الجاهل لا يؤمر بقضاء ما تركه جهلا. ومن الأدلة على هذا: حديث عمار بن ياسر :«بعثني رسول الله ﷺ

(١) رواه البخاري: كتاب الأذان، باب وجوب قراءة الفاتحة للإمام والمأموم...، رقم (٧٥٧)؛

ومسلم: كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة...، رقم (٣٩٧).
(٢) انظر فتح الباري: (١/ ٤٤٠)؛ وصحيح مسلم (١/ ٢٦٢ - ٢٦٣).

في حاجة فأجنبتُ(١)، فلم أجد الماء؛ فتمرغت في الصعيد كما تمرغ الدابة، ثم أتيت النبي ﷺ فذكرت ذلك له، فقال: «إنما كان يكفيك أن تقول بيدك هكذا»، ثم ضرب بيديه الأرض ضربة واحدة، ثم مسح الشمال على اليمين وظاهر كفيه ووجهه»(٢)، فلم يأمره النبى ﷺ بقضاء ما صلاه بذلك التيمم الذي لم يكن على وفق الشرع، وهذا القول - بلا شك - موافق لعموم قاعدة الشريعة؛ وهي اليسر وعدم العسر؛ لأن الإنسان لو أخل بواجب لسنوات كثيرة، ثم قلنا: إنه يجب عليك قضاء ما فات لكان في هذا صعوبة، وربما يكون فيه تنفير، وربما يكره أن يقوم بالعبادة من أجل هذه المشقة.

نعم لو فرض أن الإنسان بلغه شيء من العلم، ولكنه تهاون، وسكت، وقال - كما يقول البطالون -: ﴿ لا تسئلوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم ﴾ [المائدة: 101]، فهذا قد يلزمه بقضاء ما فات؛ من أجل تفريطه وتهاونه في الأمر، ولكل مقام مقال، والذي ينبغي في هذه المسألة ألا يفتى فيها بوجه عام لكل الناس، بل تكون الفتوى فيها حسب حال كل قضية بعينها، وبإمكان الإنسان أن يعرف من المفرط من غيره.

(1) أي: أصابته جنابة..
(٢) رواه البخاري: كتاب التيمم، باب المتيمم هل ينفخ فيها، رقم (٣٤٧)؛ ومسلم: كتاب الحيض، باب التيمم، رقم (368).

١٥- وفي هذه السورة العظيمة - التي سماها الرسول ﷺ أم الكتاب، وأم القرآن - دليل على مضمون ما جاء به القرآن؛ فهي أم وفاتحة؛ لأنها تشتمل على أنواع التوحيد، وتشتمل على الإشارة إلى الشرائع، وتشتمل على الإشارة إلى الرسل والملائكة، وعلى اليوم الآخر، وعلى

أقسام الناس؛ فكل معاني القرآن تتضمنها هـذه السورة، بالإشارة والدلالة التضمنية والالتزامية.

ففيهـا مـن توحيـد الألوهيـة قـولـه ـ تعـالى -: * الحمد لله رب العلمين فإن الله هو ذو الألوهية على خلقه أجمعين. وفيها من توحيد الربوبية قوله: « رب العلمين » ، والربوبية تكون عامة وتكون خاصة، وقد اجتمع النوعـان في قولـه ـ تعـالى -: (قالوا امنا برب العالمين ﷺ رب موسى وهرون ﴾ [الأعراف: ١٢١، ١٢٢]؛ فربوبية الله ـ تعالى ـ لموسى، وهارون، وأمثالها من الرسـل ليـست كربوبيتـه لفرعون، وهامان، وقارون؛ لأن ربوبيته لموسى، وهارون، وأمثالها من

الرسل ربوبية خاصة، بها عناية وتوفيق لأمر لم يوفق له أكثر الخلق. أما الأسماء والصفات ففيهـا ـ أي السورة ـ الألوهية، والرحمة، والوصف بالحمد والثناء، كل هـذا مـن أجـل كـال صفات الله ـ عـز وجل.

أحكام من القرآن الكريم

أما اليوم الآخر ففي قوله : « ملك يوم الدين *
وأما العبادة والاستعانة ففي قوله: «إياك نعبد وإياك نستعين وهي تشمل جميع الشريعة؛ من أقوال، وأفعال، واعتقـادات؛ إمـا شيء يطلب إيجاده، وإما شيء يطلب اجتنابه، وكلهـا داخلـة ضـمن قوله: وإياك نعبد وإياك نستعين» ؛ إذ لا يمكن للإنسان أن يـدع شيئا إلا بمعونة الله، ولا يقوم بشيء إلا بمعونة الله. وأما الإيمان بالملائكة؛ فإنه يؤخذ مـن قوله: « صراط الذين أنعمت عليهم ؟ ؛ لأن الذين أنعم الله عليهـم هـم الرسل، والواسطة بين الله وبين رسله هو جبريل ـ عليه الصلاة والسلام ـ؛ لأنه موكـل بـالوحي، ثم إن صراط هؤلاء الذين أنعم الله عليهم متضمن للإيمان بالملائكة. وأما الإيمان بالقدر فيؤخذ من قوله: « الحمد لله رب العالمين » ؛
لأن مقتضى الربوبية أن يكون كل شيء بتقديره، وقضائه، وقدره. وأما أقسام الناس فيها أوحى الله إلى رسـلـه فقـد تتضمنها قوله:
و صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين ؟. فالمهم أن من تدبر هذه السورة وجدها ـ كما وصفها رسول الله ﷺ أم القرآن، وفاتحة الكتاب؛ ولهذا أوجب الله ـ تعالى ـ على لسان رسـوله قراءتها على كل مصل؛ فقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ في حـديث

عبادة بن الصامت الثابت في الصحيحين:«لا صلاة لمن لم يقـرأ بفاتحة الكتاب»(١)، وفي حديث أبي هريرة قال ـ عليه الصلاة والسلام -: «كل صلاة لا يقرأ فيها بأم القرآن فهي خداج، فهي خداج، فهي خـداج» (٢)؛ يعني: فاسدة، وهذا يدل على أهمية هـذه الـسـورة، ولكـن هنـاك شيء ينبغي التنبه له، وهو أن بعض الناس يستفتح بهـا كـل شيء، ويجعلهـا السورة التي يتبرك بها في كل مناسبة، وهذا شيء من البدع؛ لأنه لم يعلم أن النبي ﷺ كان يستفتح الأمور بها، وإنـا كـان يبتـدئ بهـا في قـراءة الصلاة، نعم، هي رقية إذا قرئ بها على المريض بإخلاص؛ فإنـه ينتفـع
بها بإذن الله، والله الموفق.

(١) رواه البخاري: كتاب الأذان، باب وجـوب قـراءة الفاتحة للإمـام والمأموم...، رقـم (٧٥٦)؛ ومسلم: كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة...، رقم (٣٩٤). (٢) رواه مسلم: كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة...، رقم (395).

(٢) سورة البقرة
قال ـ تعالى ـ: « المي ذالك الكتب لا ريب فيه هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلوة ومما رزقتهم ينفقون » . في هذه الآيات يقول الله ـ عز وجل : (ذالك الكتب»؛ وهـو القرآن الكريم، وأشار الله - سبحانه وتعالى ـ إليه بإشارة البعيـد؛ لعلـو مرتبته، وعظيم منزلته؛ فإنه كلام الله ـ عـز وجـل ـ الـذي أنزلـه عـلى رسوله محمد ﷺ، وقد وصفه الله ـ تعالى ـ في القرآن بأوصـاف عظيمـة بالغة، وسماه الله كتابا؛ لأنه مكتوب في اللوح المحفوظ، ومكتـوب في

الصحف التي بأيدي الملائكة، ومكتوب في الصحف التي بأيدينا. وقوله ـ تعالى ـ: * لا ريب فيه ؛ أي: ليس فيـه ريـب ولا شـك؛ لأنه حق نازل من عند الله، وفي قوله: « هدى للمتقين»؛ أي:

الـذين اتقوا عذاب الله ـ عز وجل ـ بفعل أوامره، واجتناب نواهيه . وقوله: «الذين يؤمنون بالغيب»؛ أي: الذين يؤمنون بـا غـاب عنهم، لإخبـار الله ـ تعـالى ـ بـه ورسـوله، ويقيمون الصلوة »؛ أي: يأتون بها قائمة مستقيمة على وفق الشريعة، ومما رزقتهم ينفقون »؛ أي: ينفقـون ممـا رزقهـم الله؛ مـن الـزكـوات الواجبـة، والـصدقات
المستحبة، والنفقات اللازمة.

والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك؛ أي: من الكتب المنزلة على الرسل؛ مثـل التـوراة والإنجيـل، والزبـور،« وبالآخرة هم يوقنون »؛ أي: إيقانا كاملا لا مرية فيه.

* أولتيك على هدى من تيهم »؛ أي: عـلى صراط مستقيم وعـلـم نافع، « وأولتيك هم المفلحون »؛ أي: الذين اهتدوا بهداية الله ـ عز وجل ـ، واتبعوا ما أنزل الله؛ فأصبح مآلهم هـو الفـلاح؛ والفـلاح هـو
حصول المطلوب والنجاة من المرهوب.

فوائد وأحكام هذه الآيات الكريمات:
1ـ في هذه الآيات إشارة إلى الصنف الأول والأعـلى مـن أصناف بني آدم نحو هذا الكتاب العزيز؛ فإن الناس انقسموا في هـذا الكتـاب العزيز إلى ثلاثة أقسام: قسم آمنوا به ظاهرا وباطنا، وقـسـم آمـنـوا بـه ظاهرا وكفروا به باطنا، وقسـم كفروا به ظاهرا وباطنا، فبدأ الله ـ تعـالى بالذين آمنوا به ظاهرا وباطنا، ثم ثنى بالذين كفروا به باطنا وظـاهرا، ثم ثلث بالذين آمنوا به ظاهرا وكفـروا بـه باطنا، وهـذا التقسيم مـن أحسـن التقاسيم، وأجملها، وأوضحها؛ فبدأ بالأعلى ثم بما يقابله تماما، ثم بما هو لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، وأخـر الـكـلام عـلـيـهـم؛ لطولـه، ولبيان أوصافهم؛ حتى يحترز منهم؛ ففي قوله ـ تعالى ـ: *الم» إشارة إلى أن هذا القرآن العظيم ـ الذي أعجز أمـراء الفصاحة والبلاغـة ـ لم

يكن بأحرف خارجة عن الأحرف التي كانوا يتحدثون بها، ومع ذلك أعجزهم؛ فعجزوا أن يأتوا بمثله، أو بسورة من مثله، أو بعشر سور مثله ؛ قال الله ـ تعالى ـ: « فليأتوا تحديث مثله، إن كانوا صدقين ؟ [الطور: ٣٤]، وهذا يشمل ما يكون به الإعجاز وإن قل، وقال ـ تعالى -: ﴿ قل فأتوا بسورة مثله﴾ [يونس: 38]. وقال ـ تعالى -: ﴿ وإن كنتُم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله ﴾ [البقرة: ٢٣]، وقال ـ تعالى ـ: « قل فأتوا بعشر سور مثله، مفتريت ﴾ [هود: 13]، وقال - تعالى -: (قل لين اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرءان لا يأتون بمثله، ولوكانت بعضهم لبعض ظهيرا ﴾ [الإسراء: 88]، هذا القرآن الذي أعجزكم أيها البلغاء والفصحاء لم يأت بحروف جديدة حتى تقولوا ليست هذه الحروف معلومة لنا فلا نستطيع، هذا هو الأصح في الحكمة من ذكر الحروف الهجائية في أوائل بعض السور، أما الحروف نفسها فليس لها معنى؛ لأن الله ـ تعالى ـ أنزل هذا القرآن بلسان عربي مبين، وهذه الحروف الهجائية ليس لها معنى في اللغة العربية..

٢ـ وفي قوله ـ تعالى ـ: « ذلك الكتب دليل على علوّ مرتبة القرآن، وهو كذلك؛ لأن القرآن كلام الله - عز وجل ـ الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه؛ فهو أعلى الكلام في الفصاحة، والبلاغة، وما يحتوي عليه من العلوم النافعة.

٣ـ وفي قوله: « الكتب» دليل على أن هذا القرآن مكتوب وهو كذلك؛ قال الله ـ تعالى -: (بل هو قرءان مجيد) في لوح محفوظ [البروج: ٢١، ٢٢]، وقال الله ـ تعالى ـ: * فمن شاء ذكره (في صحف مكرمة مرفوعة مطهرة دي بأيدي سفروت كرام بررو ﴾ [عبس:
١٢ ـ ١٦]، وهو كذلك مكتوب في الصحف التي بأيدينا. 4. وفي قوله: « ذلك الكتب»؛ «ال» دليل على أن هذا الكتاب معروف معهود، وهو كذلك؛ فإن كتاب الله ـ عز وجل ـ كان معروفا معهودا بين الصحابة، لم يفتقد منه شيء، وقد ذكر أهل العلم أن من أنكر حرفا واحدا اتفق القراء على إثباته؛ فهو كافر.

وأما اختلاف القراءات السبع؛ فإن هذا مما ثبت عن النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ؛ لأن هذه القراءات السبع كلها حق تجوز القراءة
بها.

هـ وفي قوله ـ تعالى ـ: « هدى للمتقين » دليل على أن الاهتـداء بالقرآن مربوط بالتقوى؛
فكلما كان الإنسان أتقى الله كان أهدى بكتاب
الله.

6ـ وفي قوله: « هدى للمتقين » دليل على أن غير المتقي لا يهـدى بالقرآن، وهـو كـذلك؛
ولهـذا قـال الله ـ عز وجل : (كلا إن كتب الفجار لفي سجين) وما أدرنك ما سجين (كتب
مرقوم ﴾ [المطففين: ٧ -٩]

أحكام من القرآن الكريم

وقـال ـ تعـالى -: ﴿ ويل يوميذ للمكذبين و الذين يكذبون بيوم الدين (وما يكذب به إلا كل
معتد أثيم إذا تتلى عليه ايثنا قال أسطير الأولين و كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون ﴾
[المطفـين ١٠ - ١٤]، فأخبر الله ـ تعالى ـ أن هذا إذا تتلى عليه آيات الله؛ لم ينتفع بها، ولم تصل
إلى قلبه، ولم ير لها شأنا عظيها، بل يقول: «أساطير الأولين » ؛ يعني: مثل الحكايات التي تحكى
عن الأولين، ويتحدث بها لماذا؟ لأنـه ران على قلبه ما كان يكسبه من الآثام؛ فلم ينتفع
بـالقرآن، وكلـا كـان الإنسان أتقى الله كان أهدى بكتاب الله؛ ويدل على ذلك آيات كثيــرة؛
منها: قولـه ـ تعـالى : (ويزيد الله الذين اهتدوا هدى [مريم: 76]، وقوله - تعالى -: (فأما الذين
امنوا فزادتهم إيمينا وهم يستبشرون » [التوبة: ١٢٤]، وكلا نقص الإنسان من التقوى نقص
من اهتدائه بكتـاب الله بقدر ما نقص من تقواه.

قال الله ـ تعالى ـ: * الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلوة ومما رزقتهم ينفقون - والذين
يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون » .

هنا بين الله ـ تعالى ـ أوصاف هؤلاء المتقين؛ فوصـفـهـم ـ سـبحانه - بأنهم يؤمنون بالغيب؛
أي: با غاب عنهم مما أخبر الله به ورسله؛ لأنهم

يصدقون بها أخبر الله به ورسله أكثر مما يصدقون با شـاهدوه بـأعينهم أو سمعوه بـآذانهم، وأمـور الغيـب التـي أخـبر الله بها ورسـلة كثيرة معروفة في كتاب الله وفي سنة رسول الله ﷺ. ومـن أوصـافهـم أنهـم يقيمـون الـصلاة؛ أي: يـأتون بهـا قائمـة تامـة بـشروطها، وأركانهـا، وواجباتها، ويتممون ذلك بمتماتها من المستحبات، ومن أوصافهم - أيضا ـ أنهم ينفقون مما رزقهم الله - عز وجل ـ على حـسـب مـا تقتضيه الشريعة إنفاقا دائـرا بـين الإفراط والتفريط؛ كـا قـال الله ـ تعـالى -: والذين إذا أنفقوا لم يشرفوا ولم يقتروا وكان بين ذالك قواما ←
[الفرقان: ٦٧].
وفي قوله: « أولتيك على هدى من ربهم وأولتيك هم المفلحون » يخبر الله ـ تعالى ـ في هذه الآية بأن هـؤلاء على هـدى، وعلى علـم مـا وهـبهم الله ـ عـز وجـل ـ، وبيـن الله ـ تعـالى ـ مـآلهـم وهـو الفـلاح؛ والفلاح هو حصول المطلوب، والنجاة من المرهوب.

فوائد الآيات الكريمات:
1ـ أن الإيمان بالغيب من تقـوى الله ـ عز وجل ـ وهـو أسـاس التقوى؛ لأن ضد الإيمان الشك والتكذيـب؛ فإن الناس فيها أخبر الله بـه ورسله ينقسمون إلى ثلاثة أقسام: قسم يؤمنـون بـذلك ويوقنـون بـه وقسم ينكرون ذلك ويجحدونه، وقـسـم يترددون فيـه ويـشكـون فـيـه

والنـاجـي مـن هـذه الأقـسـام هـو القـسم الأول؛ الـذين يؤمنـون بـه ويصدقون به.

٢ـ أن الإيمان بالشيء المشاهد لا يجدي ولا ينفع؛ لأنه إيمان يقتضيه الواقع؛ فلا يمدح الإنسان عليـه، فالإنسان الذي يقـول: أنـا أؤمـن بالشمس، وأؤمن بالقمر، وأؤمن بالنجوم لا نمدحه على مـا يـؤمن بـه من هذه الأشياء المحسوسة، وإنما يمدح الإنسان على ما يؤمن بـه مـن الأشياء الغائبة؛ ولهذا لا ينفع الإنسان إيمانه إذا شاهد الأمر عيانا؛ كا قال الله ـ سبحانه وتعالى -: « فلما رأوا بأسنا قالوا ءامنا بالله وحده
وكفرنا بما كتابه، مشركين فلم يك ينفعهم إيمهم لما رأوا بأسنا سنت الله التي قد خلت في عباده، وخير هنالك الكفرون) غـــــار: ٨٤، 85]، وقال الله ـ تعالى ـ في فرعون لما أدركه الغـرق ـ: « قال امنت أنه لا إله إلا الذي ءامنت به بنوا إسراءيل وأنا من المسلمين * فقيـل لـه

والفين وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين ﴾ [يونس: ٩٠ – ٩١] 3ـ فضيلة إقامة الصلاة، وأن ذلـك مـن تقـوى الله ـ عـز وجـل
والصلاة ـ هنا ـ شاملة لصلاة الفريضة وصلاة النافلة. ٤ـ أن الصلاة قد يفعلها الإنسان على غير وجه الإقامة لها؛ مثـل أن يفعلها غير تامة، أو يفعلها ناقصة من الأركان، أو من الواجبات، فمـن النقص في الأركان الذي يتهاون فيه الكثير من الناس عـدم الطمأنينة؛

فإن بعض الناس يتهاون في الطمأنينة، ولا يطمئن، لا سيما في القيـام بعد الركوع، وفي الجلوس بين السجدتين، ومن المعلوم أن الطمأنينة في هذين الركنين وفي غيرهما مـن أركـان الـصلاة، وأن الصلاة لا تصح بدون الطمأنينة فيها وفي غيرهما من الأركـان؛ ففـي الـصحيحين مـن حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ: «أن رسـول اللـه ﷺ دخـل المسجد، فدخل رجل، فصلى، فسلم على النبي ﷺ فرد وقـال:«ارجـع فـصل؛ فإنك لم تصل»، فرجع فصلى كما صلى، ثـم جـاء فـسـلـم عـلى النبي ﷺ فقال:«ارجع فصل؛ فإنك لم تصل» (ثلاثا)، فقال: والذي بعثك بالحق، ما أحسن غيره، فعلمني، فقال:«إذا قمت إلى الصلاة فكبر، ثم اقـرأ مـا تيسر معك من القرآن، ثم اركع حتى تطمئن راكعـا، ثـم ارفـع حتى تعتدل قائما، ثم اسجد حتى تطمين ساجدا، ثـم ارفـع حتى تطمين جالسًـا، وافعل ذلك في صلاتك كلها»(١)، وإنـا أمـره الـرسـول ﷺ أن الصلاة مرة بعـد أخـرى؛ مـن أجـل أن يشتد توقانـه إلى معرفة الصلاة وأحكامها؛ حتى يتلقى ذلك بنفس مشرئبة متطلعة إلى معرفة الحكم؛ فيكون ذلك أرسخ في قلبه، وفي رواية للحديث :«إذا قمت إلى الصلاة فأسبغ الوضوء، ثم استقبل القبلة فكبر» (٢)، وإنها قال لـه النبـي
يعيد

(١) سبق تخريجه ص(٣٨).
(٢) رواه البخاري: كتاب الاستئذان، باب من رد فقال: عليـك الـسلام، رقـم (٦٢٥١)؛ ومسلم: كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة، رقم (٣٩٧).

ﷺ:«إذا قمت إلى الصلاة فأسبغ الوضوء»، مع أنه لم يشاهده ﷺ وهو يتوضأً؛ لأن من جهل هذه الأركان في صلاته قد يكون جاهلا للوضوء، فأرشد النبي ﷺ إلى ما ينبغي أن يقوم به من إسباغ الوضوء، المهم أن رسول الله ﷺ أمرنا أن نطمئن في هذه الأركان، وهو دليل على أن الصلاة لا تصح دون الطمأنينة فيها، فالكثير من الناس يضيع الطمأنينة في هذه الأركان؛ فيكون غير مقيم للصلاة، ومن إقامة الصلاة صلاتها في المساجد مع الجماعة؛ لأن النبي ﷺ قال: «لقد هممت أن آمر بالصلاة فتقام، ثم آمر رجلا يصلي بالناس، ثم أخالف إلى رجال يتخلفون عنها، فأمر بهم فيحرقوا عليهم بحزم الحطب بيوتهم» . وعن أبي هريرة قال: «أتى رجل أعمى فقال: يا رسول الله، إنه ليس لي قائد يقودني إلى المسجد، فسأل رسول الله ﷺ أن يرخص له، فيصلي في بيته، فرخص له، فلما ولّى دعاه فقال: «هل تسمع النداء بالصلاة؟ » فقال: نعم؛ قال: «فأجب»(٢)؛ فمن لم يأت بصلاة الجماعة مع قدرته عليها وعدم وجود عذر شرعي في تركها؛ فإنه غير مقيم للصلاة، فلا يكون داخلا في هذه الأوصاف الحميدة الجليلة.

(١) رواه البخاري: كتاب الأذان، باب وجوب صلاة الجماعة، رقم (٦٤٤)؛ ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب فضل صلاة الجماعة، رقم (651).
(٢) رواه مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب يجب إتيان المسجد على من سمع النداء، رقم

(٦٥٣).

أما النساء فلا تجب عليهنّ صلاة الجماعة في المساجد؛ لأن الرجال هم المخاطبون بالاجتماع إليها، أما النساء فقد قال النبي ﷺ: «... وبيوتهن خير لهن»(١)، ولكن المرأة مأمورة بأن تحضر صلاة العيد؛ لأن النبي ﷺ أمر أن يخرج إليها النساء حتى الحيض وذوات الخدور إلا أنه أمر الحيض أن يعتزلن المصلى)؛ لأن مصلى العيد مسجد تثبت له أحكام المسجد كلها.

خمسة؛
ومن إقامة الصلاة المحافظة عليها في أوقاتها، بل هذا من أهم إقامتها، وأوقات

الصلوات معروفة ـ ولله الحمد ـ، وهي - فالفجر من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس، والظهر من زوال الشمس ـ أي: ميلها إلى جهة المغرب ـ حتى يصير ظل كل شيء مثله بعد فيء الزوال، والعصر من ذلك الوقت ـ أي: من صيرورة ظل كل شيء مثله ـ إلى أن تصفر الشمس، هذا وقت الاختيار، والضرورة إلى غروب الشمس. أما صلاة المغرب فوقتها من غروب الشمس إلى مغيب الشفق الأحمر، والعشاء من مغيب الشفق الأحمر إلى نصف الليل. وطلوع الفجر إلى طلوع الشمس يمكن إدراكه بالمشاهدة، وزوال الشمس إلى أن يصير ظل كل شيء مثله يمكن أن يعرف بوضع عصا أو

(١) رواه أبو داود: كتاب الصلاة، باب ما جاء في خروج النساء إلى المساجد، رقم (567). (٢) انظر البخاري: كتاب العيدين، باب خروج النساء والحيض إلى المصلى، رقم (٩٧٤)؛ ومسلم: كتاب صلاة العيدين، باب ذكر إباحة خروج النساء في العيدين إلى المصلى، رقم (٨٩٠).

نحو ذلك قائمة في الشمس، وينظر إلى ظلها، فما دام الظل ينقص فالشمس لم تزل، فإذا بدأ الظل يزيد ـ ولو يسيرا جدا ـ فقد زالت الشمس، وحينئذ اضبط مكان الزيادة، فإذا صار من مكان الزيادة إلى منتهى ظلها طولها فقد خرج وقت الظهر ودخل وقت العصر. أما انتهاء وقت العصر فهو معلوم بالمشاهدة، وهو اصفرار الشمس؛ أي: أن تكون الشمس صفراء، ومن اصفرار الشمس إلى الغروب ـ أيضا ـ معلوم بالمشاهدة. أما صلاة المغرب فوقتها من الغروب إلى مغيب الشفق الأحمر، وهو معلوم بالمشاهدة ـ أيضا ، وتقريبه في الساعة: ما بين ساعة وربع أو سبع عشرة دقيقة من الغروب إلى ساعة ونصف ساعة أو ساعة واثنتين وثلاثين دقيقة بعد الغروب؛ لأن طول مدة وقت المغرب يختلف باختلاف الفصول، ومن بعد ذلك يدخل وقت العشاء مباشرة إلى نصف الليل، وبيان ذلك أن تنصف ما بين غروب

الشمس إلى طلوع الفجر؛ فالنصف هو منتهى وقت صلاة العشاء. فلا يجوز للإنسان أن يؤخر الصلاة عن وقتها المحدد لها شرعا إلا لعذر يبيح الجمع؛ فيجوز أن يؤخر الصلاة الأولى التي تجمع لما بعدها إلى دخول وقت الثانية؛ لأن السبب المبيح للجمع يجعل وقت الصلاتين وقتا واحدا؛ فمن أخر الصلاة عن وقتها، وصلاها بعد الوقت بدون عذر شرعي؛ فإن صلاته مرفوضة لا تقبل؛ لقول الله - تعالى -: (وتلك حدود الله ومن يتعد حدود الله

فقد ظلم نفسه »

[الطلاق: 1]، وقولـه في آيـة أخـرى: « تلك حدود الله فلا تعتدوها ومن يتعد حدود الله فأولتيك هم الظلمون ﴾ [البقرة: ٢٢٩]، والظالم لا يقبل منه عمل؛ لأنه ظلم، والله ـ سبحانه وتعالى ـ لا يحب الظالمين، ويؤيد القول بأن الصلاة بعد وقتها لا تصلح بدون عذر قوله : «من عمـل عمـلا ليس عليه أمرنا؛ فهو رد»(١)، ومن المعلوم أن مـن أخـر الـصلاة عـن وقتها بدون عذر فقد عمل عملا ليس عليه أمر الله ورسوله؛ فيكـون مردودا غير مقبول.

هـ فضيلة الصلاة؛ حيـث نـض الله ـ عز وجل ـ عـلى إقامتهـا بخصوصها، ومن المعلوم أن النص على الشيء بخصوصه يـدل عـلى عناية كاملة به، وعلى مرتبة عالية له.

٦ـ فضيلة الإنفاق مما رزق الله ـ عز وجل ؛ لقوله ـ تعالى ـ: «ومما رزقتهم ينفقون، والإنفاق من المال ينقسم إلى واجب ومستحب، وأوجب الواجبات الزكاة التي فرضها الله - عز وجل ـ على العباد، فمن قام بها وأداها؛ فإنه يدخل في هذه الآية الكريمة أول من يدخل، ويدخل في الإنفاق ـ أيضا ـ الإنفاق على من يجب الإنفاق عليه؛ من زوجة، وقريـب، ومملوك، وإنني بهذه المناسبة أحذر بعض الناس الذين يبخلون با آتاهم الله من فضله، فيظنون أن ذلك خيرا لهم، وأن ذلك

(1) أخرجه مسلم: كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة، رقم (١٧١٨).

تنمية لأموالهم؛ فإن هذا ليس خيرا لهم، بل هو شر لهم؛ كـا قـال الله ـ تعالى -: ﴿ ولا تحسبن الذين يبخلون بما اتهم الله من فضله، هو خيرا لهم بل هو شر لهم سيطوقون ما تخلوا به يوم القيامة ولله ميراث السموات والأرض والله بما تعملون خبير ﴾ [آل عمران: 180]، أحذر

هؤلاء البخلاء من أن يمنعوا الزكاة، وأحذرهم من أن يمنعوا الإنفاق على زوجاتهم، وأحذرهم من أن يمنعوا الإنفاق على من أوجب الله عليهم الإنفاق عليه، وأحذرهم من أن يمنعوا ما أوجب الله عليهم بذله من المال؛ من إطعام جائع، أو كسوة عار، أو غير ذلك مما ذكر أهل العلم وجوب الإنفاق فيه، وليعلم الإنسان أن كل نفقة ينفقها يبتغي بها وجه الله ـ تعالى ـ يثيبه عليها، ويأجره عليها، ولا تزيد ماله إلا ناء وبركة؛ كما جاء في الحديث الصحيح:«ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبدا بعفو إلا عزا، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله»(١) .

(أولتيك على هدى من ربهم وأولتيكهم

المفلحوت .

من فوائد وأحكام هذه الآية:

أن هؤلاء المتقين المتصفين بهذه الصفات على هدى من الله، وعلى

(١) رواه مسلم: كتاب البر والصلة، باب استحباب العفو والتواضع، رقم (٢٥٨٨).

بصيرة، وعلى برهان بأن مآلهم الفلاح؛ وهو الفـوز بـالمطلوب والنجـاة من المرهوب، وهذا غاية كل إنسـان؛ قـال ـ تعالى ـ: « فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز ﴾ [آل عمران: ١٨٥]. نسأل الله ـ تعـالى ـ أن نكـون مـن الـفـائزين السعداء في الـدنيا والآخرة.

ثم قال الله ـ تعالى ـ: « إن الذين كفروا سواء عليهم أنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون﴾.

يبين الله ـ سبحـانه وتعالى ـ حال هؤلاء الكفار المكذبين لرسـول اللى ﷺ ومآلهم؛ أما حالهم فقد قـال ـ سبحانه وتعالى -: ﴿ سواء عليهم أنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون»؛ أي: أنهـم لا يؤمنـون سـواء أنذرتهم أم لم تنذرهم؛ وذلك لأن الله ختم على قلوبهم وعـلى سـمعهم، وجعل على أبصارهم غشاوة، وهـذا كقولـه ـ تعـالى : (إن الذين حقت عليهم كلمت ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل ءاية حتى يروا العذاب الأليم ﴾ [يونس: 96،97]، ولا ينافي هذا مـا عـلـم مـن أن بعـض الناس يكون كافرا بالله ـ عز وجل ـ ثم يهديه الله ـ سبحانه وتعالى ـ إلى الإسلام؛

فيكون من أئمة المسلمين، ودعاة المسلمين، وأنـصار الـدين؛ لأن الكلام فيمن كان كافرا، وقد حقت عليه كلمـة الله ـ عز وجل ؛

فإنه لا يمكن لأحد أن يهديه، أما من كان كافرا، ولم تحـق عـليـه كـلـمـة الله، وعلم الله منه أنه سيتوب، ويدخل في الإسلام؛ فإنـه لا يدخل في هـذه الآيـة * إن الذين كفروا سواء عليهم أنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصرهم عشوة * ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم؛ أي: جعل الله عليهـا الخـتم؛ وهـ الطبع بعد الإغلاق والاستيثاق، يختم على الشيء حتى يبقـى مختومـا لا يصل إلى خير، فهؤلاء ختم الله على قلوبهم؛ فلا يـصـل إلـيـهـم الإيان، وعلى سمعهم؛ فلا يستمعون إلى ما يتلى عليهم على وجـه ينتفعـون بـه أما الأبصار ـ والعياذ بالله ـ فجعل الله عليهـا غـشـاوة؛ لا يبصرون ولا ينظرون إلى آيات الله ـ عز وجل ـ التي تدلهم على الحق، وبين الله ـ تعالى ـ أن لهم في الآخرة عذابا عظـيا؛ حيـث قـال ـ تعـالى -: ﴿ ولهم عذاب
عظيم .

فوائد هذه الآية الكريمة:
1ـ أن من حقت عليه كلمة الله من الكافرين لا يمكـن أن يـؤمن، سواء أنذر أم لم ينذر، وسواء رغب أم لم يرغب؛ لأنه قد طبع على قلبـه؛
فلا يمكن وصول الهداية إليه.

٢ـ ومن فوائد هذه الآية ـ أيضا ـ تسلية النبي ﷺ حتى لا يضيق صدره، ولا يكون في نفسه حرج، كما قال الله ـ تعالى ـ: « فلعلك بنخع

نفسك على اثرهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا ﴾ [الكهـ ف: 6]، وقال ـ تعالى ـ: « لعلك بخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين ﴾ [الشعراء: 3]، فالنبي ﷺ ومن ورثه من أهل العلم عليهم

البلاغ والدعوة إلى الله ـ عز وجل ـ وبعد ذلك لا يضرهم من ضل ما داموا على الاهتداء، كا قال الله ـ تعالى ـ: (يأيها الذين ءامنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم * [المائدة: 105].

3ـ ومن فوائد الآية الكريمة أنه ينبغي للمؤمن الذي مـن الله عليه بالإيمان أن يحمد الله - سبحانه وتعالى ـ على هذه النعمة العظيمة. ٤ـ ومن فوائد الآية الكريمة أن رسول اللى ﷺ قد قام بإنذار هؤلاء الكافرين، ولكن هؤلاء الكافرين قد حقت عليهم كلمة العذاب؛ فلـم يجد فيهم الإنذار شيئا.

هـ ومن فوائد الآية الكريمة أن الله - سبحانه وتعالى ـ يمن على من يشاء من عباده؛ فمن عباد الله من يشرح الله له صدره، وييسر له أمره، يشرح صدره للإسلام حتى يفرح به ويستبشر به، ويتسع صدره لقبوله؛ فيقبله، وينفذ أحكام الله - عز وجل ـ على الوجه الذي يرضاه
هذا؛
الله - سبحانه وتعالى ـ، ومن الناس من يكون على العكس من فيضيق صدره حرجا با سمع من آيات الله - سبحانه وتعالى ـ، قال الله ـ تعالى ـ: « أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه؟

[الزمر: ٢٢]، وقال ـ تعالى ـ: * فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله تجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد في السماء كذلك تجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون »

[الأنعام: ١٢٥].
فإن قال قائل: كيف يهدي الله قوما ويضل آخرين؟

فالجواب: أن هذا السؤال لا يرد؛ لأن الله ـ تعالى ـ له أن يفعـل مـا يشاء، فله أن يمن على من يشاء من عباده فيهديهم إلى صراطه المستقيم، كا قالـت الرسـل لأقـوامـهـم: « إن نحن إلا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء من عباده، * [إبراهيم: 11]، ونقول ثانيا: إن الله -

سبحانه وتعالى ـ لا يهدي إلا من كان أهلا للهداية، ولا يضل إلا من كان أهـلا للضلالة، كما قال الله ـ تعالى ـ: «الله أعلم حيث تجعل رسالته ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، وقال ـ تعالى ـ: « فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفسقين ﴾ [الصف: 5]، فلا يضل من ضل إلا بسبب من نفسه، يكـون
قلبه غير مريد للحق وغير قابـل لـه، والله ـ تعـالى ـ يعـلـم منـه ذلـك؛ فيكتب الله له الشقاء والضلال؛ نسأل الله الهداية.

6ـ ومن فوائد الآية الكريمة أنه ينبغي للإنسان أن يكون دائمًا عـلى حذر، وألا يعتمد على نفسه، وأن يخـشـى مـن الـزيـغ والضلال، وأن يسأل الله ـ سبحانه وتعالى ـ دائها الثبات على الحق، والمـوت عليـه، وأن

يحمد الله الذي من عليه بالهداية، وقد أضل قوما آخرين.
- ومن فوائد الآية الكريـمـة إثبـات الجـزاء في قولـه ـ تعـالى -:
ولهم عذاب عظيم ".

٨- ومن فوائـدهـا إثبـات حكمـة الله؛ فإنـه ـ سـبحانه وتعالى ـ لم يعـذب هـؤلاء إلا لاستحقاقهم العـذاب بكفـرهـم بـالله ـ سـبحانه وتعالى ـ، وبها يجب عليهم الإيمان به.

ثم قال الله ـ عـز وجـل ـ: «ومن الناس من يقول : امنا بالله وباليوم الأخر وما هم بمؤمنين خدعون الله والذين ءامنوا وما تخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون ؟ .

وهذا هو القسم الثالث من الأقسام التي ابتدأ الله بها هذه السـورة، وهم: المؤمنون الخلص والكافرون الخلص، والمؤمنون بألسنتهم دون قلوبهم.

قال - تعالى -: ﴿ ومن الناس * أي: بعض الناس يقـول: آمنـا بـالله وباليوم الآخـر، لـكـن يـقـول ذلـك بـلـسانه؛ ولهـذا قـال: «وما هم بمؤمنين» أي: ما هم بمؤمنين بقلوبهم، بل هم في قلوبهم منكـرون، لا يعترفون بهذا ولا يقرون به ـ والعيـاذ بـالله ـ، خدعوت الله والذين

ءامنوا وما تخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون» ؛ أي: أنهم في عملهم هذا وسيرتهم هذه يخادعون الله والذين امنوا، وما يخدعون إلا أنفسهم. والخداع، والمكر، والكيد، معانيها متقاربة؛ وهي الإيقاع بالخصم من غير أن يشعر، هؤلاء يتظاهرون، بالإيمان؛ ليخادعوا الله والمؤمنين، فيظنون أنهم أحسنوا صنعا، ولكنهم أساءوا صنعا وسبيلا؛ ولهذا قال الله - عز وجل -: «وما تخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون ، - فهم في الحقيقة خدعوا أنفسهم، ولعبوا بها، وغروها، واغتروا بصنعهم؛ فلم ينفعهم هذا الخداع؛ لأن الحساب يوم القيامة على ما في القلوب، كا قال الله ـ تعالى ـ: « إنه على رجعه، لقادر يوم تبلى الشراير فما له من قوة ولا ناصر ﴾ [الطارق: ٨ - ١٠]، وقال ـ تعالى -: ٥ أفلا يعلم إذا بعير ما في القبور وحصل ما في الصدور ون إن تهم بهم يومين لخبير ﴾ [العاديات: ٩ ـ ١١].

وقوله ـ تعالى ـ: «وما تخدعوت إلا أنفسهم » ؛ أي: أن هؤلاء المنافقين الذين ظنوا أنهم خدعوا الله والمؤمنين با يتظاهرون به من الإيمان وهم على الكفر لا يخدعون إلا أنفسهم؛ لأنهم غروها، واغتروا با صنعوا، وظنوا أنهم يحسنون صنعا، ثم قال: «وما يشعرون» ؛ أي: لا يشعرون أنهم خدعوا أنفسهم؛ ولهذا استمروا على ما هم عليه من
النفاق.

ج
في قلوبهم مرض ؛ أي: شك، وريب، ونفاق؛ «فرادهم الله مرضاه ؛ أي: أعطاهم مرضا أكثر من المرض الأول، وهذا في قوله ـ تعالى -: «وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيمنا فأما الذين ءامنوا فزادتهم إيمينا وهم يستبشرون من وأما الذين في قلوبهم مرضت فزادتهم رجسا إلى رجسهم وماتوا وهم كفرون ﴾ [التوبة: ١٢٤، ١٢٥]، فهؤلاء المنافقون لما كانت قلوبهم مرضى؛ صاروا يزدادون مرضا فوق مرضهم؛ لأنهم كلما كذبوا شيئا وأنكروا شيئا؛ ازدادوا بذلك كفرا وبعدا من الله - عز وجل. ولهم عذاب أليم »؛ أي: مؤلم « بما كانوا يكذبون » أي: *

بسبب كذبهم؛ حيث قالوا: إنهم مؤمنون، وما هم بمؤمنين. في هذه الآيات الكريمة يبين الله - سبحانه وتعالى ـ أن مـن النـاس من ينافق؛ والنفاق هو إظهار الخير وإبطان الشر، وهو بالنسبة لحـق الله نفاق عقدي مخرج عـن الإيـان، وقـد يكـون نفاقا عمليا؛ كالـريـاء، وبالنسبة لحق المخلوق نفاق عملي لا يخرج من الإيمان، كـا قـال النبي : «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتُمِن
خان».

(١) رواه البخاري: كتاب الإيمان، باب علامات المنافق، رقم (٣٣)؛ ومسلم: كتـاب الإيـان، بـاب بيان خصال النفاق، رقم (٥٩).

فوائد وأحكام هذه الآيات:
1ـ إثبات النفاق في بعض الناس؛ لقوله: ﴿ ومن الناس من يقول* والنفاق لم يحدث في هذه الأمة إلا بعد أن قويت، وكـان لهـا سـلطان، وعزة، ورفعة؛ ولهذا قال العلماء: إنه لم يظهر النفـاق في هـذه الأمـة إلا بعد غزوة بدر؛ حيث انتصر فيها المسلمون على أعـدائهم، ووجـه هـذا ظاهر؛ فإن المنافق إنها ينافق؛ خوفا على نفسه وماله، ولا يمكن الخـوف على النفس والمال إلا مع قوة المخوف منه.

٢ـ ومن فوائدها: أن الأقوال لا تنفع إذا لم يكن القلب مطابقا لهـا، فإذا قال الإنسان قولا ولكن قلبه منكر؛ فإن هذا القـول لا ينفعـه عنـد الله، بل لا يزيده من الله إلا بعدا.

٣ـ ومن فوائدها: أن أحكام الدنيا تجري على الظاهر؛ أي: عـلى مـا يظهر من حال الإنسان دون الأمـر الباطن الـذي في قلبـه؛ لأن الأمـر الباطن لا يعلمه إلا الله ـ عز وجل ـ، أما الأمر الظاهر فيعلمه كـل مـن ظهر لـه؛ ولهـذا لم يقتـل النبي ﷺ المنافقين، وقـال حـين اسـتُؤذن في قتلهم: « لا يتحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه»(١)؛ ويتفرع على ذلك

(١) رواه البخاري: كتاب الأدب، باب قول الله ـ تعالى ـ: «يقولون لين رجعنا إلى المدينة ليخرج الأعز منها الأذله، رقم (٦٠٩٤)؛ ومسلم: كتاب البر والصلة، باب قبح الكذب وحسن الصدق وفضله، رقم (٢٦٠٧)

أننا نجري الناس في أحكام الدنيا على ظاهـر حـالهم، ولا نسيء الظـن بأحد إذا لم تظهر لنا قرائن قوية تذيل هذا الأصل؛ ومن ثم قال الفقهـاء ـ رحمهم الله ـ: إنه يحرم سوء الظن بمسلم ظـاهره العدالة؛ ومـن هـنـا أحذر بعض الإخوة الذين يطلقون مثل قولهم: هذا منافق، هـذا كـافر هذا كذا.. إلخ، ويصفونه بأوصاف تخالف ظـاهـر حـالـه بـنـاء عـلى مـا يظنونه في قلبه، وهذا خطأ؛ لأنه ليس لنا أن نحكـم إلا بـا ظـهـر، قـال النبي ﷺ : إنكم تختصمون إلي، ولعل بعضكم أن يكون ألحـن بحجته من بعض؛ فأقضي له على نحو مما أسمع منه ... »(١)؛ فدل هـذا عـلى أنـه ليس لنا أن نحكم إلا بما هو ظاهر، أما ما هو بـاطـن فـأمره إلى الله، ولا يجوز لنا أن نرمي عباد الله بما يخالف ظاهر حالهم، اللهم إلا إذا وجدت قرائن قوية تبين كذبه، فهذا يحكم له بما تقتضيه الشريعة. ٤ـ ومن فوائدها: أن المنافق ليس بمؤمن؛ لقوله ـ تعالى ـ: * وما هم بمؤمنين وهو كذلك، ولكن هل يصح أن نقـول: إنهـم مـسلمون؟ يرى بعض أهل العلم أنه يصح أن نقول عن المنافق: إنـه مـسلم؛ لأنـه مسلم ظاهرا، وربـا يـستدلون بقولـه ـ تعـالى ـ في قـصـة لـوط ـ عليـه الصلاة والسلام -: «فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين ع فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين﴾ [الذاريات: 35، 36]، وهذا البيت يضم زوجـة

(١) رواه البخاري: كتاب الشهادات، باب من أقام البينة بعد اليمين، رقم (٢٦٨٠)؛ ومسلم: كتاب الأقضية، باب الحكم بالظاهر واللحن بالحجة، رقم (١٧١٣)

لوط ـ عليه الـصلاة والسلام ـ، وهـي تتظاهر بالإسلام، وليست بمؤمنة، كما قال الله ـ تعـالى -: ﴿ ضرب الله مثلا للذين كفروا أمرأت نوح وامرأت لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صلحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئا وقيل أدخلا النار مع الداخلين ﴾ [التحريم: ١٠]. فسمى

الله ـ سبحانه وتعالى ـ هذا البيت بيت المسلمين، بـل سـمـى مـن فيه مسلمين، مع أن فيه هذه الزوجة التي ليست بمؤمنة، والمنافقون - في الحقيقة ـ مسلمون إسلاما عمليا؛ لأنهم لا يخالفون في الظاهر ما كان عليه المسلمون، وإن كان ذلك يثقل عليهم، ويشق عليهم، كـا قـال - تعالى -: «إن المتفقين خدعون الله وهو خدعهم وإذا قاموا إلى الصلوة قاموا كسالى يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا [النـــــساء: ١٤٢]، وقال النبي ﷺ:«ليس صلاة أثقل على المنافقين من الفجر والعشاء، ولو يعلمون ما فيها لأتوهما ولو حبوا»، وعـلى كـل حـال فالمنافق إذا لم
يظهر نفاقه ويعلنه فهو مسلم ظاهرا، وإن كان غير مؤمن. هـ ومن فوائد الآية الثانية. وهي قوله ـ تعالى ـ: «خدعون الله والذين ءامنوا وما تخدعوت إلا أنفسهم وما يشعرون أن هـؤلاء المنافقين إنما صنعوا ما صنعوا؛ مخادعة، ومكرا، وكيدا؛ فيذل هـذا عـلى ذم الخداع، والمكر، والكيد ـ وهو كذلك ؛ فـالمكر، والخـداع، والكيـد

(١) رواه البخاري: كتاب الأذان، باب فضل صلاة العشاء في الجماعة، رقم (657).

أمور ممقوتة ومذمومة إلا إذا كان في ذلـك مـصلحة، بحيث يكـون في مقابل من يخدعك؛ فإنه يجوز أن تخدع من خدعك، كما قال الله ـ تعـالى وإن المتفقين خدعون الله وهو خندعهم» [النساء: ١٤٢]؛ ولهذا نقول: إن الحرب خدعة، ويذكر أن علي بن أبي طالب لما خرج إليه عمـرو بـن ود ليبارزه صرخ علي فقال: إني لم أخرج لأبارز رجلين، فظن عمـرو أن معه ه آخر، فالتفت؛ فضربه علي حتى قتله، فإن هذا لا شك أنـه خـداع، لكنه خداع لمن يحسن خداعه؛ لأنه مستحق له.

6 ـ ومن فوائدها: بيان أن المنافقين من أعداء المؤمنين؛ ولهذا يقول: خدعون الله والذين ءامنوا ، كـا أنـهـم أعـداء الله ـ عـز وجـل ؛ ويترتب على هذه الفائدة الحذر من المنافقين، وأن يحترز الإنـسـان مـن الإفضاء إليهم بالأسرار والأمور المهمة؛ خوفا من أن يطيحوا بـه، وأن يلقوه في المهلكة.

ـ ومـن فـوائـد قـولـه ـ تعـالى -: «وما تخدعوت إلا أنفسهم وما يشعرون أن الإنسان قد يعمى عن الضلالة؛ فيظن أن ما فعلـه حـسن وهو سيئ، وهؤلاء هم أخسر الناس أعمالا كما

قال الله ـ تعالى ـ: «قل هل ننبئكم بالأخسرين أعملًا و الذين ضل سعيهم في الحيوة الدنيا وهم تحسبون أنهم تحسنون صنعا ﴾ [الكهف: 103، 104].
فإن قال قائل: بم نزن حسن الفعل وقبحه؟

قلنا: نزن ذلك بكتاب الله، وسنة رسوله و، وما كان عليه السلف الصالح؛ فإن خير الكتب كتاب الله، وخير الهدي هـدي محمـد و، وشر الأمور محدثاتها.
ثم قال الله ـ عـز وجـل : « في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا ولهم
عذاب أليم بما كانوا يكذبون .

من فوائد هذه الآية الكريمة:
1ـ أن قلوب المنافقين مرضى، والمرض ـ هنا ـ ليس مرضا عـضويا يكون به الألم الجسدي، ولكنه مرض معنوي يرفض بـه القـلـب الحـق ويقبل الباطل، وهذا وصف منطبق تماما على المنافقين. ٢ـ ومـن فـوائـد الآية الكريمـة: أن القـلـب عـلـيـه مـدار الـصلاح والفساد بالنسبة للعمل؛ لأن الله ـ تعالى ـ وصف القلب بالمرض، وهـو دليل على أنه إذا مرض مرض معه الجسد، وإذا صح صح معه الجسد، ويؤيد هذا قول النبي ﷺ: «ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب»

3ـ ومن فوائد الآية الكريمة: أنه ينبغي للإنسان أن يعتني بقلبه فينظر: أصحيح هـو أم مـريض؟ فـإن كـان مريضا؛ فليحـرص غايـة

(١) رواه البخاري: كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه، رقم (٥٢)؛ ومسلم: كتاب المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشبهات، رقم (١٥٩٩)

الحرص على طلب الشفاء لـه، وإن كـان صـحيحًا؛ فليحمـد الله عـلـى ذلك، وليسأله الثبات عليه،

ونحن نشاهد أن الإنسان إذا مرض عـضو من أعضائه مرضا جسميا ذهب إلى كل طبيب من أجل أن يحصل على شفاء من هذا المرض، ولكن مرض القلب لا يهتم به كثـير مـن الناس مع أن مرض القلب أشد خطرا، وأعظم فتكا من مرض البدن. ٤ـ ومن فوائد الآية الكريمة: أن الإنسان إذا لم يحرص عـلى عـلاج مرض قلبه؛ فإنه يعاقب بزيادة المرض؛ لقوله: « في قلوبهم مرض فزادهم اللّٰه مرضاه ولا شك أن هذه العقوبة أعظم من العقوبة بفقـد الـولـد، والأهل، والمال، وكثير من الناس يغفل عنها، فكثير من الناس يظنـون أن العقوبـة إنـا تـكـون في الأمـور الظـاهرة؛ كالأبـدان، والأمـوال، والأولاد، والحقيقة أن العقوبة بمرض القلوب وفسادها أشـد وأعظـم من العقوبة بمثل تلك الأمور، بل إن كثيرا من الناس يكون قلبـه ميتـا، يصاب بالمصائب من الخوف، والجوع، وغير ذلك من المصائب الماديـة المحسوسة، ولا يرعـوي ولا يرتـدع عـا هـو عـليـه مـن الـفـسـوق والعصيان.

هـ ومن فوائد الآية الكريمة: أن اللّٰه - سبحانه وتعالى ـ عـدل في قضائه وقدره؛ فإنه لم يجاز هـؤلاء المنافقين بزيـادة المرض، إلا حيـث كانت قلوبهم مريضة عفنة؛ ولهذا قال: «فرادهم فأتى بالفـاء الدالـة

على تفرع ما بعدها على ما قبلها.
6 ـ ومن فوائد الآية الكريمة: أن المنافقين ـ كما يبتلون بزيادة مرض القلب؛ يبتلون أيضا بالعذاب وهو العقوبة على أعالهـم الـسيئة، وهـو عذاب أليم مؤلم، ولا يقاس بألم الدنيا وعقوبتهـا؛ ولهـذا قـال: « ولهم غذات ألين .

ومن فوائد الآية الكريمة: إثبات السبب؛ لقوله ـ تعالى ـ: « بما كانوا يكذبون والباء ـ هنا ـ للـسببية، ولا شـك أن ارتبـاط المسببات بأسبابها وترتبها عليها من مقتضيات حكمة اللّٰه ـ عـز وجـل ـ، ونحـن نعلم جميعا أن من أسماء اللّٰه (الحكيم) الذي يضع الأشياء مواضـعها، ومن ذلك ترتيب المسببات على أسبابها؛ ويتفرع على هذه الفائـدة الـرد على من أنكروا تأثير الأسباب، وقالوا: إن الأسباب لـيس لهـا أثـر في مسبباتها، وظنوا أن هذا هـو التوحيد، وأن إثبـات تـأثير الأسباب في مسبباتها نوع من الشرك، ونحن نقول: إن تأثير الأسباب في مسبباتها ليس تـأثيرا ذاتيًا، ولكـنـه تـأثير وسيلة؛ فالأسباب وسيلة لحصول المسببات، والذي جعلها سببا لمسبباتها هو اللّٰه ـ عـز وجـل؛ ولهذا قـد تتخلف المسببات عن أسبابها بقضاء

الله وقدره، أفلا ترى النار المحرقة تكون بردا وسلاما بأمر الله، كما في قـصـة إبـراهيم الخليـل حـين أضرم قومه النار؛ ليحرقوه، وألقوه في النار فعلاً، ولكن الله ـ سبحانه وتعالى ـ

قال للنار التي ألقوه فيهـا: « قلنا يشاركوني بردا وسلاما على إبراهيم [الأنبياء: 69]؛ فكـانـت بـردا وسلاما «بزدا لم تحرقه، و«وسلما لم تؤذه، قـال أهـل الـعـلـم: لـو قـال الله لهـا: «كوني بردا ولم يقـل: ووسلما؛ لكانت بردا مؤذيا له أو مؤثرا عليه ضارا به، ولكنه قـال - سبحانه وتعالى - : وسلما؛ فكانت بردا لطيفا لا يضره ولا يتأثر به، وهذا من تمام قدرة الله - عز وجل -، وهو أكبر دليل على أن الأشياء لا تؤثر تأثيرا ذاتيا بنفسها، وإنها تؤثر بتقدير الله ـ عـز وجـل ـ، وأنـت إذا أثبت الأسباب على هذا الوجه لم تكن مثبتا مع الله ـ تعالى ـ فـاعلا، بـل الأسباب ومسبباتها كلها مفعولات الله ـ عز وجل ـ. هـ ومـن فـوائـد قـولـه ـ عـز وجـل : ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون * ؛ معرفة سوء النتائج والعواقب للكذب، وأن الكذب سبب للعذاب، ولكن لا شك أن الكذب تتفاوت مراتبه، وإذا تفاوتت مراتبه تفاوتت عقوباته؛ فالكذب على الله ورسوله ـ مثلا ـ أعظم من الكـذب على غير الله ورسوله، والكذب الذي يترتب عليه إتلاف مال أو إتلاف أنفس أعظم من الكذب الذي لا يترتب عليه ذلك، ولكن الكذب كله حرام، ولا يصح تقسيم من قسّم الكذب من العامـة إلى كـذب أبيض وكذب أسود، ويقولون: إن الكـذب الأبيض هـو الـكـذب الـذي لا يترتب عليه إتلاف مال ولا إتلاف نفـس، وإن الكـذب الأسـود هـو

)

الذي يترتب عليه شيء من ذلك، فنقول: إن الكذب كله أسود، وليس في الكذب شيء ممدوح، سواء ترتب عليه إتلاف مال أو أنفس، أو ظلم لأحد أم لم يترتب عليه شيء؛ ويدل لذلك أن النبي ﷺ جعـل الـكـذب من صفات المنافقين ومن علاماتهم فقال:«آية المنافق ثلاث: إذا حـدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان»(١).

ويدل لهذا أن جميع العقلاء ينكرون الكذب، ولا يرضون أن يكون خلقا لهم، ألا ترى إلى أبي سفيان حين قدم على هرقل ملك الـروم قبـل أن يسلم، فسأله هرقل عن حال النبي ﷺ، وصفاته، وحـال أصحابه؛ فلم يشأ أبو سفيان أن يتكلم بكلمة كذب فتؤثر عليه، وكـل العقـلاء يذمون الكذب، ولا يرضى أحد منهم أن يوصـف بأنـه كـذاب، وقـد حذر النبى ﷺ من الكذب وقال:«.. وإياكم والكذب؛ فإنّ الكـذب يهدي إلى الفجور؛ وإن الفجور يهدي إلى النار، وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كـذابا»")، والكـذوب المعـروف عند الناس بالكذب لا يوثق بخبره، حتى وإن كان صادقا؛ لأن النـاس يحكمون على الإنسان بغالب أحواله، ويصفونه بغالب أخلاقه، فعـلى

(١) سبق تخريجه ص (٥٥).
(٢) رواه البخاري: كتاب الأدب، باب قول الله - تعالى -: (يأيها الذين ءامنوا اتقوا الله وكونوا مع الصدقين * رقم (6094)؛ ومسلم: كتاب البر والصلة، باب قبح الكذب وحسن الصدق وفضله، رقم (٢٦٠٧)

المسلم أن يبتعد عن الكذب كله صغيره وكبيره، ما تضمن الظلـم منـه وما لم يتضمنه.

ثم قال الله - تعالى -: ﴿ وإذا قيل لهم » ؛ أي: قيـل للمنافقين:* لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون » لم يبين الله ـ سبحانه وتعالى ـ القائل للمنافقين هذا القول؛ ليشمل كـل مـن قـال لهـم مـن الناس، فكلما قـال لهـم النـاس: لا تفسدوا في الأرض بالوشـاية، والكذب، والخيانة، وإظهار الإسلام، أمام المسلمين، وإظهـار الكـفـر أمام الكافرين قالوا: «إنما نحن مصلحوت» من أجل أن نـسـلـم مـن القتـل والحـرب مـع المـؤمنين، ونـسـلـم مـن الكراهية والبغض مـن الكافرين، نصلح طريقنا وسيرتنا مع هؤلاء وهؤلاء، ﴿ وإذا لقوا الذين ءامنوا قالوا ءامنا وإذا خلوا إلى شيطينهم قالوا إنا معكم؟ .

وتأمل قوله: «إنما نحن مصلحون»؛ حيث حـصروا حـالهم في الإصلاح، فقال الله ـ عز وجل ـ مكذبا لهم ورادا عليهم: (ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون» فقابل الله - سبحانه وتعالى ـ القول بقول أبلغ منه؛ حيـث حـصر الإفساد فـيهم، وصـدره بـ(ألا) الدالـة عـلى التوكيـد

فـقـال: «ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون»، وصـدق الله - عز وجل ؛ فـإن المنافقين هـم المفسدون الـذيـن يفسدون في

الأرض، ويجعلون فيها الفتنة بما يسيرون عليه من النفاق. من فوائد وأحكام هاتين الآيتين:
1ـ أن المنافقين قد يأتيهم من ينصحهم، ويبين لهم حـالهم، وأنهـم يفسدون في الأرض، ووجه الإفساد من هؤلاء أنهم يعطون للمسلمين ألسنة طيبة وقولا معسولا؛ فيظن المؤمن أنهم من أوليائه فيفضي إلـيهم بأسراره، ولكـنـهـم كـاذبون في ذلك، ويحـصـل بهـذا الفساد؛ حيـث يحصلون على أسرار المؤمنين وينشرونها بين الكفار.

ومن إفساد المنافقين في الأرض ـ أيضا ـ أنهم يريدون أن تُمحى شريعة الله - عز وجل -، وأن يكون الحكم والتحاكم إلى الطاغوت؛ والطاغوت كل نظام يخالف شرع الله - سبحانه وتعالى ـ أي: يخالف ما شرعه الله ـ سبحانه وتعالى ـ لعباده، فالمنافقون يحاولون بكل جهودهم أن يكون التحاكم إلى غير الله ورسوله؛ لقول الله ـ تعالى ـ: « ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم ءامنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطغوت وقد أمروا أن يكفروا به.، ويريد الشيطن أن يضلهم ضلالا بعيدا) وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنفقين يصدون عنك صدودا (فكيف إذا أصبتهم مصيبة بما قدمت أيديهم ثم جاءوك تحلفون بالله إن أردنا إلا إحسنا وتوفيقا - أوليك الذين يعلم الله ما في قلوبهم فأعرض عنهم وعظهم وقل لهم في

أنفسهم قولا بليغا ﴾ [النساء: 60 - 63]، فالمنافقون لا يريدون أن تبقى شريعة الله هي الحكم بين خلقه في أرضه، تحت سائه، ولكن يريدون أن يكون التحاكم إلى الطاغوت؛ وهو كل ما خالف شريعة الله مما سنه البشر، ولا شك أن هذا فساد عظيم ـ أعني: رجوع الناس إلى غير شريعة الله في التحاكم بينهم ـ فيه الفوضى، وفيه الظلم، وفيه الجور؛ لأن كل حكم يخالف حكم الله لا شك أنه جور؛ فإن الله - سبحانه وتعالى ـ هو الذي يحكم بين عباده بالقسط، وقد

أمر الله ـ سبحانه ـ أن يكون التحاكم إليه لا إلى غيره فقال: « وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله ﴾ [الشورى: ١٠]، وقال ـ سبحانه وتعالى ـ: * فإن تنزعتُم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذالك خير وأحسن تأويلًا﴾ [النساء: ٥٩].

ومن إفساد المنافقين في الأرض أنهم يؤذون رسول الله ﷺ بكل ما يستطيعون من أذية؛ قولية أو فعلية، صريحة أو تلميحية، كما قال الله - عز وجل : « ومنهم الذين يؤذون النّبي ويقولون هو أذن قل أذن
خير لكم يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين ورحمة للذين ءامنوا منكم والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب أليم ﴾ [التوبة: 61]، وهم يؤذون رسول الله ﷺ لا لشخصه، لا لأنه محمد بن عبدالله؛ ولكن لما جاء به من الشريعة؛ لأنهم يكرهونها، ويرون أن من قام بها فإنه مستحق للأذية، ولكنهم ـ بحمد الله، ورحمته، وعزته، وقدرته، ونُضريه لنبيه

لا يضرون النبي ﷺ كما قال ـ تعالى -: «لن يضروكم إلا أذى﴾ [آل عمران: ١١١)، فهم لا يضرون الرسول ﷺ بأذيتهم، وإن علمنا أنهم يؤذون رسول الله ﷺ؛ من أجل أن يتنازل عن شيء من شريعة الله خوفا من أذيتهم، فإننا نعلم كذلك أنهم يؤذون أتباع رسول الله ﷺ لعلهم يحدون من التمسك بشريعته ، وإذا كانوا يؤذون من اتبع رسول الله ﷺ فإن على المؤمنين المتبعين لرسول الله ﷺ الصبر على أذيتهم القولية أو الفعلية، التصريحية أو التلميحية، وليعلموا أن الله - عز وجل ـ جاعل كيدهم في نحورهم.

ومن إفساد المنافقين في الأرض أنهم يثبطون عن الجهاد في سبيل الله وعن قتال أعداء الله؛ لأن أعداء الله يوافقونهم في الكفر، فالكل كافر، لكن هؤلاء مخادعون يظهرون الإسلام، والكافرون صرحاء أشجع منهم يعلنون كفرهم ولا يبالون، وهم يثبطون عن قتال هؤلاء الكافرين، كما ذكر الله - سبحانه وتعالى ـ عنهم في عدة آيات من القرآن العزيز.

ومن إفساد هؤلاء ـ أعني: المنافقين ـ في الأرض أنهم يوالون أعداء الله، ويتولونهم أكثر مما يتولون المؤمنين؛ لأن أعداء الله الكفار إخوانهم، إخوانهم في الكفر، إخوانهم الحقيقيون؛ لأنهم متفقون وإياهم على الكفر بالله - سبحانه وتعالى ـ؛ فهم يتولونهم أكثر مما يتولون

لأنهم إنا يتولون المؤمنين في الظاهر لا في الباطن، ومـن المعـلـوم أن توليهم للكافرين يزيد الكافرين قوة ويزيدهم ثباتا في مجابهـة المـؤمنين، وهذا يتضمن نصر الكفر على الإيمان.

وأنواع إفسادهم في الأرض كثيرة يعرفها من يتتبع الآيات الكريمة في كتاب الله ـ عز وجل ـ كـا في هـذه الـسـورة، وكـا في سـورة آل عمران، وكما في سورة النساء، وكـا في سورة التوبة، وكـا في سـورة الأحزاب، وكما في سـورة المنافقين، نسأل الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن يحمي الإسلام من كيدهم، وأن ينصر المسلمين عليهم. يقول الله ـ سبحانه وتعالى -: ﴿ وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون » وهذه دعـوى مـنهم ينظـر هـل يـصدقها الواقع أو لا يصدقها، فبين الله - عز وجل ـ أنه لا يصدقها الواقع. ويستفاد من هذا: أن كل إنسان يدعو إلى باطل فإنها يزعم أنـه عـلى حق، وأن كل إنسان يدعو إلى فساد فإنها يزعم أنه يدعو إلى صلاح، فإذا قال قائل: بأي شيء يوزن الصلاح والفساد، والحق والباطـل؟ قلنـا: بالرجوع إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ؛ فبها يعرف الحق من الباطل، ويعرف الصلاح من الفساد.
ثم قال الله - عز وجل -: «وإذا قيل لهم ءامنوا كما ءامن الناس قالوا

أنؤمن كما ءامن الشفها ألا إنهم هم الشفها، ولكن لا يعلمون . لم يبين الله ـ تعالى ـ القائل، وقوله: «كما ءامن الناس المراد بهـم المؤمنـون؛ رسـول اللـه ﷺ وأصحابه، وقـد قـال هـؤلاء المنافقون في الجـواب عـلى مـن يـدعوهم إلى الإيمان: «أنؤمن كما ءامن الشفها وهذا الاستفهام للإنكار، يعني لـن نـؤمـن كـا آمـن الـسفهاء؛ لأنهـم سفهاء وليسوا راشدين؛ أي: ليس عندهم رشد، بل هم في سـفه؛ قـال الله ـ تعالى ـ: «ألا إنهم هم الشفها، ولكن لا يعلمون * .

وتأمل في الفرق بين قوله هنا: «ألا إنهم هم الشفها وقوله في الآية التي قبلها: ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون هناك نفي الشعور عنهم؛ لأن الإفساد أمر ظاهر معلوم يدرك بالحس والحواس الظاهرة، أما الإيمان فإنه أمر باطن يدرك بالبصيرة الباطنة؛ ولهذا قال: * ولكن لا يعلمون» فأبطل الله - تعالى - دعواهم بأن المؤمنين سفهاء، وبين أنهم هم السفهاء، وحصر السفه فيهم فقال: «ألا إنهم هم الشفهاء» ؛ أي: لا غيرهم، ولكنهم في عمى وضلال، لا يعلمون أنهم سفهاء؛ ولهذا استمروا على ما هم عليه من الضلال
والعمى.

من فوائد الآية الكريمة:
1- أن هؤلاء المنافقين قد دعوا إلى الحق ودعوا إلى الإيمان، ولكنهم

لكبريائهم وغطرستهم، واحتقارهم غيرهم - يجيبون من يدعوهم إلى ذلك بأنهم لا يؤمنون كا آمن السفهاء.

٢- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن هؤلاء المنافقين يدّعون أنّ الإيمان سفه، يدعون ذلك إما عن اعتقاد وإما عن إضلال للخلق، يحتمل أن الله - تعالى - أعمى بصيرتهم؛ فرأوا الحق باطلاً، ويحتمل أنهم يرون الحق حقا ولكن لم يوفقوا إلى اتباعه، وهذا هو الأقرب، إذن فهم يريدون بوصف المؤمنين بالسفهاء، يريدون بذلك تنفير الناس من المؤمنين ومن طريقتهم، ومن الإيمان بالله.

٣- ومن فوائد الآية الكريمة: أن لتنفير المنافقين عن دين الله عدة طرق منها؛ شجب أتباعه كما في هذه الآية.

٤- ومن فوائد الآية الكريمة: أنه يجب أن يرد على ذي الباطل باطله، ويبين أنه هو الذي على الباطل؛ لقوله - تعالى -: «ألا إنهم هم
الشفها

هـ ومن فوائد الآية: أن السفه وصف رديء، كل أحـد ينـفـر منـه وهذا أمر لا شك فيه، ولكن ما السفه؟ السفه ـ كل الـسفه ـ أن يرغـب إنـسـان عـن ديـن الله ـ عـز وجـل ـ وعـن الملـة التي عليهـا الأنبيـاء والصالحون، قال الله - تعالى -: «ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من شفة نفسه * [البقرة: 130]؛ ولهذا نقول: كل إنسان يرغب عن دين الإسلام؛

فإنه سفيه مهما بلغ في الذكاء، ومهما بلغ في الإدراك، لكنه لو كان راشدا عاقلا عقل تصرف وتدبير؛ لكان متبعا لما جاء به رسول الله ﷺ ـ

*

ثم قال الله - تعالى -: ﴿ وإذا لقوا الذين امنوا قالوا ءامنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مشتهرة ون ان الله يستهزئ بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون».

هؤلاء المنافقون من أوصافهم المراوغة، والدجـل، والتمويه؛ فهم إذا لقوا الذين آمنوا وقالوا ءامنا ؛ إرضـاء للمؤمنين، وخـداعـا لهـم، * وإذا خلوا إلى شيطينهم طواغيتهم أئمة الكفر قـالوا: «إنا معكم»؛ يعنـي ولـسـنـا مـؤمنين؛ وإنما نحن مستهزون» أي: مستهزئون بالمؤمنين، نسخر منهم، ونلعـب بعقولهم، هـكـذا زعمـوا، فقـال الله تعالى ـ ردا عليهم:

الله يستهزئ بهم ويمدهم في طغيبهم يعمهون» واستهزاء الله بهـم يعني: أنه ـ عز وجل ـ يستهزئ بهم، يتخذهم هزوا، فيملي لهم، ويمهل لهم، فالاستهزاء صفة مـن صـفات الله الثابتـة لـه عـلى وجـه الحقيقة، ولازمـه أن الله يمهـل هـؤلاء، ويمـدهـم ويـدعهم في هـذا الطغيـان يضيعون ويتيهون.

من فوائد الآيتين الكريمتين:

١ـ بيان مراوغة هؤلاء المنافقين؛ حيث يقولون للمؤمنين قولا، ويقولون للشياطين من الكافرين قولا آخر مضادا له؛ ﴿ وإذا لقوا الذين ءامنوا قالوا ءامنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم وهذه غاية المراوغة؛ ففيها خداع لهؤلاء ولهؤلاء، خداع للمؤمنين بأنهم مؤمنون، وخداع للكافرين بأنهم معهم، ولكن خداعهم للكافرين ليس كخداعهم للمؤمنين؛ لأن حقيقة حالهم أنهم مع الكفار، فهم لي بمؤمنين حقا، وهم كافرون حقًا.

٢ـ ومن فوائدهما: أن الإنسان يؤخذ بظاهره؛ فالمؤمنون إذا قال لهم هؤلاء المنافقون: «آمنا» تركوهم وظاهرهم؛ ولهذا كان رسول الله يعاملهم على ظاهرهم حتى إنه استؤذن في قتلهم فقال:«لا يتحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه»(١)، وهكذا الأحكام في الدنيا إنها تكون على الظاهر لا على الباطن، أما في الآخرة فتكون الأحكام على الباطن، وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «إنكم تختصمون إلي، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض؛ فأقضي له على نحو مما أسمع منه، فمن قطعت له من حق أخيه شيئا فلا يأخذه؛ فإنا

(١) سبق تخريجه ص(56).